

571
7

خوسي مارية ميساس بييكروسا
الاستاذ بجامعة برشلونة

www.tetouanhadit.com

علم الفلاحة
عند المؤلفين العرب بالاندلس

مشرى الفلاحة في تطلو

تعريب

عبد اللطيف الخطيب

تطوان
معهد مولاي الحسن
1957

مقدمة المؤلف

لدراسة علم الفلاحة والزراعة عند المؤلفين الاسبانيين المستعربين قيمة مزدوجة، بل اهمية بيئية متزايدة، لان ذلك العلم الفلاحي هو قبل كل شيء ارقى مظهر للعمل الزراعي المنجز في العالم العربي الذي يمتد من ايران الى البحر المحيط. وما من شك في ان هذا العلم هو نسيج مكون من المساهمات الواردة عبر اعمال الري العظيمة في دجلة والفرات وجنات نهر اورونطس ومجاري النيل وحدائق قرطجنة ومزارع اسبانيا الحصبية وجناتها. وهذا العلم الفلاحي العربي هو ارقى شاهد على هذا العمل الزراعي العظيم الذي انجزته الشعوب الناطقة باللغة العربية. وهناك مظهر آخر يضاف الى هذه الاهمية وهو ان المؤلفين الاسبانيين المستعربين في فن الفلاحة يضيفون العلم الزراعي اللاتيني الى مساهمات الشعوب المختلفة في هذا المضمار. وقد ساد الاعتقاد بان العالم العلمي العربي قد عاش على لبان مدرسة الاسكندرية والمدرسة الاغريقية الشرقية وكان يجهل النتاج العلمي اللاتيني. وعلمنا ان نعترف بان الثقافة اللاتينية ما كانت لتقدم في قضايا العلم الا شيئاً قليلاً. وقد اضاف المؤلفون الفلاحيون العرب في اسبانيا مساهمة اللاتينيين الى ذلك المجموع العلمي العام.



لوحة بارزة النقوش يمثل فيها الملك «نار - مير» أو «مينى» الشهير
(من الاسرة الاولى) عند افتتاح موسم الري في المزارع

وهناك مظهر آخر من مظاهر تلك الاهمية وهو ان ما القاه
الاسبانيون المستعربون في علم الفلاحة قد أثر في العلم الزراعي الاسباني
في العصور الحديثة. ولم يكن ذلك التأثير مقصوراً على فن الحقول
والتقنيات والجنات. بل ساهم الى حد ما في اشراك العلم الزراعي
الاسباني في نقطة عصر النهضة. و «ألونسو دي ايريرا» الذي يتسمى باسمه
احد الجامعات التابعة «للمجلس الاعلى للابحاث العلمية» كان في مؤلفه
«الفلاحة» يتزود من المعلومات التي اوردها الاسبانيون المستعربون
في علم الفلاحة.

وعلى ان نعترف بان الانسانية لم تنتقل من مرحلة حياة القنص
والصيد لتقترب من حياة الاستقرار وفلاحة الارض الا في ذلك الشرق
الادنى من اراضي فنيقيا وفلسطين الى بلاد الشرق الاوسط. وقد اقام
البحاث الادلة والبراهين على كيفية اجتياز الانسانية في الشرقين الاوسط
والادنى لمرحلة العصر الحجري الاخير واتخاذها حياة الفلاحة والاستقرار
عند ما كانت اوربا لا تزال متخلفة في العصر الحجري. والثقافة «الخلفية» التي
نشأت على ضفاف وادي الفرات تشير الى هذه الخطوة الاولى نحو حياة
الاستقرار (1) وبفضل هذه الخطوة وذلك الاجتياز أمكن في تلك الاقطار
القيام بعمل زراعي واحداث نوع من الفن الفلاحي. ونجد الادلة على
صحة هذا القول في بلاد الكلدانيين القديمة وفي عائلات الملك التي
تعاقت عليها خلال السنوات الالف الثانية. فقد باشر الملوك الكلدانيون
أعمالاً عظيمة لتنظيم مجاري مياه الانهار الكبرى النازلة من مرتفعات

(1) انظر كمرجع هام كتاب «New Light on the most ancient East» مؤلفه
V. Gordon Childe نشر 1954, Londres و «From the Stone Age to Christianity»
ل مؤلفه W. F. Albright نشر 1946, Baltimore.

بلاد الارمن وجبالها لاستغلال مياهها في اعمال الزراعة بالاراضي الخصبة التي تتطلب فن الري.. وحدث شيء من هذا القبيل في تلك الاثناء بدلنا نهر النيل. ونحن نجد في راس مطرقة كبيرة من عهد الاسرة المالكة الاولى بمصر صورة بارزة للملك «نار - مير» (وهو «مينس الشهير») يفتح اعمال الري في الحقول (2) وكانت مهمة بحيرة «ميرس» هي جمع مياه النيل المتدفقة، ولعل هذه البحيرة تشرح لنا اعمال الفلاحة الكثيفة العظيمة في الاراضي المنخفضة من وادي النيل كما ورد ذكره في سفر التكوين المتعلق بالجوع الذي قاسته بلاد كنعان في عهد النبي ابراهيم (انظر السورة 12 الآية 10) واسحق (انظر السورة 26) ويوسف بن يعقوب. وهذا مع العلم بان سكان دلتا النيل لم يعرفوا الجوع قط، وذلك بفضل تلك الفلاحة والري الكثيف المنتظم واحتياط يوسف وحسن تبصره. وقد كان رعاة كنعان من ابناء يعقوب - وحياتهم تشبه الى حد ما حياة الرحل - ينتقلون الى وادي النيل بحثاً عن القمح. وهذا يبرهن على وجود فلاحه كانت تكفي حاجيات السكان وتستطيع تزويد تلك الاراضي الجبلية الخاضعة في بعض الاحيان لمناخ شديد الجفاف كمناخ فلسطين وجنوب فنيقيا بما كانت تحتاج اليه.

وقد اقتفت سوريا مثال وادي النيل وارااضي الكلدانيين المنخفضة في السهول الممتدة بين لبنان وما قبله، أي في ناحية بعلبك الشهيرة. وقد سر هيرودوت سروراً كبيراً أثناء تجواله بهذا الشرق الاوسط عند ما وقف على منظر الفلاحة العجيب بتلك الجهات. ولم تكن بلاد اليونان تعرف معجزة هذه الفلاحة الكثيفة القوية

(2) انظر الملحة رقم (1).



لوحة اشورية بارزة النقوش دون النصف تمثل ملكا
مجنحا يلقي زهر النخيل تلقيجا صناعيا

كانها كانت أكثر جدوبة وتناقض في مظهرها مع وفرة الفلاحة
والخصب الموجود في الشرقيين الاوسط والادنى. وقد جعل هيرودوت
بلاد الكلدانيين في المكانة الاولى تليها سوريا ثم جنات الساحل الشرقي
وهذه الظواهر هي التي ستشرح لنا كيف ان الفلاحة المبكرة في الشرقيين
الادنى والاطوسط انتقلت بسرعة الى الغرب عن طريق قرطجنة التي
كانت مستعمرة تابعة لصيدا وكيف ان اولئك المعمرين قدموا يحملون
معهم فنون الفلاحة. وقد ازدهرت الفلاحة ازدهاراً كبيراً في اراضي
قرطجنة بحيث ان الرومانيين لما قدموا لزيارتها اول مرة اندهشوا
اندهاشاً كبيراً أمام ذلك الازدهار الفلاحي العظيم. وبعد تحطيم قرطجنة
بقليل (عام 146 قبل ميلاد المسيح) أمر مجلس الشيوخ الروماني بان
يترجم الى اللغة اللاتينية الكتاب الشهير الذي ألفه القرطجني «ماغون»
في علم الفلاحة باللغة البونية. وان المؤلفين اللاتينيين «فارون» و
«كاتون» يتزودان في معلوماتهما من النصوص الفلاحية ذات الاصل
البوني. وقد وصف العالم الفلاحي ذو الاصل الاسباني اللاتيني «يونيو
موديراتو كولوميل» المؤلف القرطجني الشهير «ماغون» بأنه أبو الفلاحة.
وقد استغلت روما الامبراطورية هذه الفلاحة المزدهرة بالشرق الادنى
ونحن نعلم ان الرومانيين في شرق الاردن - وهو سهل مرتفع - كانوا
يستخرجون الغلل الوفيرة من القمح، بحيث كانت هذه البلاد بمثابة
مورد للحبوب بالنسبة للامبراطورية كلها. ويظهر ان ناحية النقب
وهي اكثر جهات فلسطين يابسة والتي يبذل فيها اليهود الان مجهودات
جبارة لفلاحتها كانت تؤتي بعض الغلة في العهد اليوناني وكانت
توفر على شيء من الفن الفلاحي الذي ييسر الحصول على تلك النتيجة

www.tetouanhadit.com



لوحة تمثل فاعورة على النهر العاصي في حماه (سوريا)

ونجد في نهاية العهد اليوناني والعهد العربي شواهد تثبت عدم ضياع تلك التقاليد الفلاحية. فاعمال الحفر الاثري التي قام بها الاستاذ «كلوك» خلال السنوات الاخيرة في بلاد النقب تبرز على ان هذه الناحية كانت مسكونة في العهد اليوناني اكثر مما هي عليه الان، بفضل طريقة خبيرة في التقاط مياه الامطار.

وفي القرن الرابع كتب أناضول البيروتي مدونا في الفلاحة ينقسم الى اثني عشر كتاباً. وقد ترك هذا المدون فرعين أحدهما امتد في العالم البيزنطي على عهد «كونستانتان بورفيروجينيتا» بينما امتد الفرع الاخر في العالم العربي. وتزود أناضول البيروتي بمعلومات كثيرة من العلم الفلاحي والزراعي في بلاد الكلدانيين والاراميين. فانظر كيف وصل هذا التقليد العلمي الفلاحي الى العرب: فقد ترجم مدون أناضول البيروتي في القرن السادس الى اللغة السريانية من طرف «سيريجيو دي ريساينا» المتوفي عام 536 والذي كان من اوسع الناس ثقافة في ذلك العهد، اذ ترجم الى اللغة السريانية عدة مؤلفات علمية يونانية. وبعد ذلك قام المسيحي «كوستا بن لوقا» المتوفي سنة 912 بنقل تلك الترجمة السريانية الى اللغة العربية، كما ترجم غيرها من المؤلفات العلمية الى هذه اللغة.

وكان لكل هذه المعارف الفلاحية والزراعية القديمة صدى كبير في اول كتاب ألفه العرب في الفلاحة. وكان ذلك الكتاب هو كتاب «الفلاحة النبطية» الشعير الذي يرجع الى اوائل القرن العاشر. وعاش في العراق اوائل القرن العاشر مؤلف كان يعتز باصله الكلداني ويسمى ابا بكر احمد بن علي الكلداني او النبطي فكتب مؤلفاً كبيراً في الفلاحة

اسماه «الفلاحة النبطية» لان اسم النبطيين كان يشير بين العرب فيما يظهر الى الكلدانيين الاقدمين او الى الثقافة التي ورثها العرب عن الامة النبطية التي كانت مدينة «بیترا» عاصمة لها. ولنتذكر انه كانت لهيروودس أنتيباس علاقات بالنبطيين اذ ان زوجته كانت نبطية. وكان النبطيون يعيشون في القسم الشمالي الغربي من بلاد العرب الحجرية فلم يكونوا يستطيعون لذلك مباشرة الفلاحة. غير ان لفظ «النبطي» كان واسع الشهرة. وقد ظهر عند المؤلفين العرب بين القرنين التاسع والثالث عشر باعتباره ممثلاً للكلدانيين والآراميين الاقدمين. وهذا التعيين بالاشارة لصالح العلم الفلاحي القديم يملأ صفحات كتاب «الفلاحة النبطية» وهذا الكتاب مليء بالشواهد ومؤلفه رجل ضليع ذو تجربة وان لم يكن رجل علم حسب الاصطلاح الحديث. لذلك جاء الكتاب شبيهاً بفسيفساء من الشواهد والنصوص العربية والفارسية وشواهد ونصوص أخرى للاقدمين من المؤلفين الكلدانيين والسوريين وحتى بعض المؤلفين اليونانيين. والكتاب يحتوي على وجهات نظر فلكية، بحيث جاء عبارة عن فلاحة فلكية أثرت تأثيراً كبيراً في المؤلفين العرب المتأخرين.

وأثناء النصف الثاني من القرن العاشر أراد كونستانتان السابع في بيزنطة أن يكون له كتاب في الفلاحة فكان مؤلف أناضول البيروني كذلك قاعدة لديوان فلاحي يكاد يكون قائماً كله على ذلك المؤلف. أما المستشرق الذي أظهر اوروبا على كتاب «الفلاحة النبطية» فهو الروسي «ب. خفلسون» الخبير بشؤون الشرق الاوسط وقضاياه والذي ظن ان تلك الفلاحة النبطية كانت من بقية الفلاحة الكلدانية والبابلية



لوحة تمثال مزرعاً صنيغاً فوق مدرجات وتبدو اليوم متآكلة جداً بـوادي الصرار (فلسطين)

القديمة التي بقيت محفوظة عبر العصور فازدهرت وظهرت في ذلك الكتاب. الا انه قد أمكنت المقارنة فيما بعد بين ذلك النتاج قتيبن ان المؤلفين العربي والبيزنطي يتفرعان فعلاً من مصدر واحد مشترك. وهو الامر الذي يشرح أوجه الشبه الموجودة بينهما (3).
وعلينا في النهاية أن ندخل الى اسبانيا ونعتبر ان بغداد عاصمة الخلافة، قد زاولت من القرن الثامن الى القرن العاشر مهمة علمية راقية كالمهمة التي زاولتها أثينا أو الاسكندرية، اذ انها انجزت عملاً هاماً ضمن التاريخ العلمي للانسانية وتقدمت بالتراث العلمي الذي تلقتة من الهند وفارس والاسكندرية. وسرعان ما وصلت الى اسبانيا تلك المجموعة العلمية التي حصلت عليها بغداد ونمتها. وعلينا ان نتذكر دائماً أنه كان خلال القرن العاشر اتصال وتبادل فكري كبير بين الشرق الادنى والاندلس فقد كانت الخلافة بقرطبة ترغب في اقتفاء أثر بغداد والتبريز عليها (4). ولما كان الخليفة عبد الرحمن الثالث أو عبد الرحمن الاكبر يتبنى الثقافة ويرعاها - وقد فاقه ابنه الحكم الثاني في هذا الباب - وكانت له علاقات كثيرة بامبراطوري بيزنطة فقد ظن احد المؤرخين أن بيزنطة كانت تطلب محالفة قرطبة كما كانت بغداد ترغب في محالفة باريس. وليكن ما كان من امر تعادل هذه القوات التاريخية فالحق هو ان العلاقات الطيبة قد وجدت بين بيزنطة وقرطبة. وقد طلب الخليفة عبد

(3) انظر C. Brockelmann في كتابه: «Geschichte der arabischen Literatur»
الجزء 1 صفحة 242-3.

(4) انظر E. Lévi Provençal في كتابه: «Histoire de l'Espagne Musulmane»
الجزء 3 صفحة 488 وما بعدها. طبع Paris, 1953.

الكريم بن العباس الزهراوي مؤلف صغير في الفلاحة توفي سنة (1013م).
مخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس 4764، الملف 47 - 64 و 5754،
الملف 152 - 186).

وفي أوائل القرن الحادي عشر نعت على أول كتاب اسباني في
الفلاحة العربية. وهو كتاب هام ألف بطليطة في عهد الملك المأمون
من بني ذي النون من ملوك الطوائف. وقد أحست هذه الأسرة من
ملوك الطوائف. في طليطة بضرورة حماية الآداب والعلوم وكانت تولي
عنايتها للكتب وفوز الشعراء أكثر مما توليها للانتصارات الحربية. وقام
الملك المأمون الشهير من مملكة طليطة الذي أكرم وفادة الفونسو
السادس لما هرب برعاية الآداب والعلوم. وقد كان ابن وافد مؤلف
هذا الكتاب في الفلاحة ممن استفادوا من جو تلك الرعاية الذي كان
يشمل طليطة.

وكانت طليطة في القرن الحادي عشر يكتنفها جو علمي هائل
حتى عند ما كان المسيحيون يهددونهم فقد كان يوجد بها فلكيون
يحملون على الإعجاب من أمثال أزارقييل أكبر علماء الفلك في القرون
الوسطى والذي اكتشف الحركة الذاتية للشمس وأدخل بعض التعديل
على جغرافية بتولوميو. وكانت بطليطة مدرسة كبرى للفلك كان من
ثمرتها «الجدول الطليطية» الشهيرة. ولما اضطر أزارقييل إلى مغادرة
طليطة ذهب إلى قرطبة حيث تابع إرساده الفلكية (7) ففي طليطة
بالذات نجد خلال القرن الحادي عشر أول تاريخ للثقافة العلمية. وقد
كان ابن سعيد ذو الروح العالية والذي كان يزاول وظيفة القاضي

(7) انظر كتابي «Estudios sobre Azarquiel» 1943-1950, Madrid - Granada

الرحمن من الامبراطور كونستانتان السابع ان يبعث اليه بالمؤلف الشهير
لصاحبه ديوسكوريدس في النباتات الطبية. وقد وصل الكتاب إلى قرطبة
فدعت الضرورة إلى البحث عن ترجمان هو الراهب نيقولا تكون له
معرفة باللغتين الاغريقية واللاتينية. وبعد ذلك قام الوزير اليهودي حسداي
ابن شبروت بترجمة الكتاب من اللاتينية إلى العربية. وقد كان من
الحق ان ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية قد سبقت فقد كانت هناك
مشكلات عديدة في تعرف أسماء النباتات، بحيث دعت الضرورة إلى
طلب نسخة من الكتاب تكون مشتملة على رسوم الازهار والنباتات.
وهكذا أمكنت ترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية بتعاون الراهب
المذكور والطبيب اليهودي حسداي. وعلى هذا النحو وصل إلى اسبانيا
أول مؤلف في مبادئ النباتات الطبية (5)

ونجد في عهد الخليفة الحكم كتاباً صغيراً هو «تقويم قرطبة» عن
سنة 961 المحرر باللغتين العربية واللاتينية من طرف العارب بن سعد
والراهب المستعرب الذمي ربيع بن زيد. وهذا التقويم يشتمل على
أخبار هامة حول اوجه النشاط الفلاحي في كل شهر (6) وقد استرسل
اثر هذا التقويم الفلاحي في كثير من مؤلفات العلماء الفلاحيين من
الاسبانيين المستعربين. وهكذا ينسب إلى الطبيب القرطبي الشهير ابي

(5) انظر الكتاب العظيم «La «Materia Médica» de Dioscórides. C. E. Dubler الجزء 1 صفحة 50
وما بعدها طبع برشلونة 1953.

(6) انظر R. Dozy «Le calendrier de Cordoue de l'année 961» Leyden, 1873 و E. Lévi Provençal «Histoire de l'Espagne musulmane» الجزء الثاني
صفحة 222 و 240 و 289 إلى 293.

وأحد علماء الفلك قد ألف كتاباً قيماً في تاريخ المعرفة العلمية حيث خصص جزء منها للعلم الأسباني.

وقد كان المؤلف ابن وافد مثلاً فذاً لذلك الجو العلمي الهائل الذي اكتنف مدينة طليطلة في عهد ملوك الطوائف. وأشاد المؤلفون بتبريز ابن وافد في الطب وعلم النباتات حتى أن معاصره ابن سعيد الذي سبق ذكره قد أكثر من مدحه واطرائه في هذا الباب (8) وقد كنا نعلم من قبل أنه قد ألف بعض الكتب في الطب والصيدلة، كما ألف ديواناً في الفلاحة وعهد إليه بطلب من الملك المأمون الطليطلي أن يغرس حديقة الملك الشهيرة التي يرجع أصلها إلى هيام ابن وافد بالنباتات.

واليك الآن ما قاله المؤلف الشهير ابن الأبار في كتابه «التكملة» (9).

«عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي من أهل طليطلة يكنى أبا المطرف رجل إلى قرطبة فلقى بها أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي وأخذ عنه علم الطب. وكان مع تقدمه في ذلك فقيها عالماً متفنناً وله في الطب تاليف منها كتاب الادوية المفردة استعمله الناس» و «كتاب الوسائد» وله في الفلاحة مجموع مفيد. وكان عارفاً بوجوهها. وهو الذي تولى غرس جنة المأمون

(8) انظر مقالنا «La traducción castellana del «Tratado de Agricultura» de Ibn Wāfīd» المنشور في مجلة Al-Andalus عدد 8 سنة 1943 صفحة 231 وما بعدها وآخر «Un manuscrito árabe de la obra de Agricultura de Ibn Wāfīd» نشر في مجلة Tamuda عدد 2 سنة 1954 صفحة 87 وما بعدها.
(9) نشر Codera الجزء الثاني الصفحة 551.

ابن ذي النون الشهيرة، بطليطلة. ولد في ذي الحجة سنة 389 وتوفي منتصف يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان سنة 467 (دسمبر 999 - ماي 1075).

أما «حديقة الملك» حيث يوجد الآن قصر «غاليانا» المحتوي على بقايا بنايات عربية قديمة فهي الحديقة القديمة التي غرسها ابن وافد وقد كانت في الحقيقة حديقة نباتية غرست لتجربة بعض النباتات وتعويدها على المناخ، وفي «منية» الملك هذه التي كانت على الجانب الأيسر من وادي التاجة قبل دخول الوادي إلى المنعرج العميق بحيث يستدير على «طليطلة» كان القصر أو «مجلس الناعورة» فذكر الناعورة أو الدولاب الذي كان يدور هناك والقصر والحديقة والناعورة قد انشدها شعرا ابن السيد البطلوسي (10). ويبدو في نفس «منية» أنه كان هناك مختلف الآلات التي قد وضعها «الزرقبال» لرفع المياه وساعاتها (11).

وكذلك كانت هناك ناعورة أخرى في الجانب الأيمن للوادي قريبة من القنطرة. وثمن نعلم أن الرمان الوحشي مع أزهاره الحمراء التي كانت تنبت في تلك الجهة وخاصة النباتات الوافدة من الشرق الأدنى بقصد دراستها فيما بعد. ومن الحق والصواب أن ابن وافد الذي عهد إليه ملك طليطلة بغرس تلك الحديقة والعناية بها قد ألف كتاباً في الفلاحة لا يزال مجهولاً لحد الآن. وقد وجدت في مكتبة كتدرائية طليطلة كتاباً غفلاً في الفلاحة باللغة القشتالية مع أن أصله عربي لا شك فيه. ويظهر أن هذا

(10) انظر ابن خاقان في كتابه «قلائد المعقبان» صفحة 194 والمقري في النج الجري الأولى صفحة 425 و 426

(11) انظر كتابي «Estudios sobre Azarquiel» الباب الأول صفحة 152 نشر في Madrid-Granada سنة 1950-1943

— 18 —

[illegible]



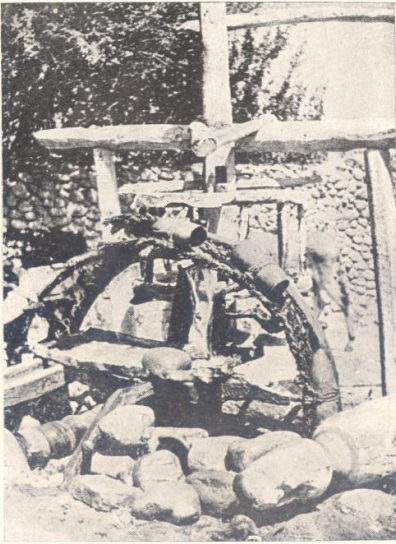
لوحة تمثل تفصيلات ناعورة بدائية في
بني بويفرح (المغرب)

ذو التقليد الثابت في العالم الاسلامي وصاحب التأثير الكبير في التقويم المسيحي، كما يمكن التثبت من ذلك في المؤلف الشهير «لألونسو دي دي اريرا» «الفلاحة العامة» المتضمن لتقويم بحره حسب التربيغات الزائدة والناقصة لمختلف الشهور القمرية.

أما القسم الاخير من كتاب ابن وافد فقد كان مخصصاً لدراسة الحيوانات وان كان يخلو من الفصل المخصص لدراسة الحيوانات الكبرى من الماشية، لانه مقصور على دراسة النحل والحمام والدجاج والأوز والطاووس وطيور اخرى. والفصول الاخيرة مخصصة لدراسة وسائل مكافحة اعداء البيوت الخلوية من ذئاب وخنازير وفئران وأفاعي وعقارب وبراغيث ونمل وبق وذباب وحشرات البهائم (14). من هذا يتبين ان المنهج الذي يقتفيه المؤلف منهج منتظم محكم اقتفى أثره أغلب المؤلفين العرب فوصل الى ايماننا هذه.

وعلينا أن نقول فيما يخص شكل العرض والايجاز فيه انه على العموم قصير. فعنوان الكتاب هو الديون أو المجموعة، ومع ذلك فاننا نجد المؤلف حريصاً على شرح المادة بكيفية موجزة مركزة. أضف الى ذلك ان ابن وافد يتفادى على العموم التحدث عن تطبيقات النباتات في شؤون الفلاح أو الصيدلة في حين أن تلك التطبيقات تشغل حيزاً كبيراً عند المؤلفين الآخرين من بينهم ايريرا مثلاً. ولما كان ابن وافد قد خصص مؤلفاً كبيراً لدراسة الادوية البسيطة فما كان له ان يعود للتحدث عنها في ديوان مقصور على الفلاحة.

(14) خطوط عريمان تكمل في هذه الابواب طبعة فاس التي تعتبر اقيج الطبقات والترجمة الاسبانية القديمة. انظر مقالتي السابقة «Un manuscrito árabe de la obra de Agricultura de Ibn Wāfid» في «Tamuda» عدد 2، صفحة 89 الى 95.



ناعورة بدائية بالزاوية الناصرية في الريف (المغرب)

أما الخاصية العملية لهذا الكتاب فأمر ملاحظ منذ البداية. ومع ذلك فالمؤلف يظهرنا على تعطش كبير الى الاخبار الغربية أو النادرة. فهو لا يحدثنا فيما لدينا الان من نصوص عن تجاربه الشخصية في الفلاحة، غير أنه لا يفتأ يجمع الجزئيات والنوادر العجيبة المقتبسة دون شك مما رواه المؤلفون المتقدمون أو من التقاليد المرعبة عند الفلاحين ومن الحق أننا نكتشف أحيانا في مؤلفنا العالم النباتي أكثر مما نكتشف فيه الاختصاصي الفلاحي. وهو على العموم قلما يذكر غيره من المؤلفين وكثيرا ما يقتصر على الإشارة الى ما قاله «العلماء». وهو يذكر بكثرة نسبة «أنطوليوس» في مؤلفه حول كيفية فلاحة الارض. والغالب أن أنطوليوس هذا هو أناضوليو البيروتي الذي جمع أواخر القرن الرابع ديوانا في الفلاحة يقع في اثني عشر كتابا. وذلك الديوان هو من اهم المصادر لدراسة علم الفلاحة البيزنطية (القرن العاشر). وعلمنا ان نتذكر كما قلنا من قبل ان كتاب أناضوليو قد نقل الى اللغة السريانية من طرف «سيرجيو دي ريساننا» ثم نقله الى العربية المترجم الشهير كوستا ابن لوقا. وكثيرا ما يرد ذكر مؤلف آخر هو «ديمقراطيس» وربما كان هذا المؤلف هو «ديموقريت» الذي اكثرت ذكره العلماء العرب في الفلاحة مثل ابن العوام الذي ينعتة بلفظ «الرومي» وليست هذه الإشارة الى الفيلسوف «ديموقريت دي عبيدرة»، بل الى «بولوس ديمقريت» من مدينة مندىس (مصر) الذي ازدهر ذكره حوالى عام 200 قبل الميلاد وذكر كتابه في الفلاحة «ديوجينيس لا رسيو» (تاريخ الفلاسفة، الفصل التاسع، ص. 48) وذكره كذلك مؤلفنا «خونيو موديراتو» في كتابه «ريس روستيكا» بالفصل الحادي عشر ص 2 و 3. وهناك مؤلف آخر

يذكره ابن وافد ويردد ذكره ببعض التردد في الكتابة وهو «فيلون» أو «أفريمون». ويظهر أن هذا الاسم يتفق مع فيليمون الذي يذكره ابن العوام وغيره من العلماء الفلاحين العرب بكثرة. وهو ينسب إلى فيليمون كتاباً في تربية الحمام. ومن الغريب الفريد ما يظهرنا عليه مؤلفنا في الفصل الثاني من اختيار المياه ودراساتها.

وقد ذكر فيلون البريطي في كتابه في قود المياه لذلك علامات كثيرة وشرح هذا الكتاب وبينه أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي وهو احسن كتاب الف في هذا المعنى لابد لمن اراد قود ماء من موضع بعيد إلى مدينة أو قرية أو نحوها من تصفح هذا الكتاب اما فيه من المنافع وقرب المأخذ وما من شك في أنه يعقوب بن اسحق الكندي صاحب الصيت الذائع، الا اننا لا نعرف بالضبط إلى أي كتاب يشير من كتبه ولم نجد أي ذكر لذلك الكتاب عند غيره من العلماء الفلاحين المتأخرين. والغالب نظراً إلى المادة التي يدرسها أن الكتاب هو النص العربي لما ترجم إلى اللغة اللاتينية بعنوان «De pluvis, imbris et ventis et de aeris mutatione» فذاع صيته وطبع لأول مرة في البندقية عام 1507. وابن وافد كغيره من المؤلفين العرب يستعمل الشهور الرومانية ذات الاصل السرياني مثل آب وتموز لدورة الغل. ونحن لم نر أي ذكر لكتاب «الفلاحة النبطية» الشهير ولا لأي أحد من المؤلفين الذين يرد ذكرهم في ذلك الكتاب. ونظراً إلى الشجرة التي اكتسبها هذا الكتاب بين المؤلفين العرب - مثل ابن العوام الذي يذكره بكثرة - نعتقد أن ذلك الكتاب لم يكن مجهولاً عند مؤلفنا. وسنرى فيما بعد مبلغ التأثير العظيم الذي كان لكتابنا في كتاب «الفلاحة» لالونسو دي إيريرا.

وهناك مؤلف طليطلي كذلك ومعاصر لابن وافد هو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بصال الذي لم يكن يعرف عنه شيء الكثير وكل ما كان يعرف عنه أنه الف كتاباً كبيراً في الفلاحة أهده للخليفة المأمون بعد أن جمعه في ستة عشر فصلاً، الا أن هذا الكتاب قد ضاع (15). غير اني وجدت في طليطلة كتاباً موزعاً باللغة القشتالية يرجع إلى القرن الرابع عشر فعظم اعتقادي بعد الاستقصاء أنه ترجمة كتاب ابن بصال في الفلاحة. وسجلات مكتبة الاسكريال تحدثنا عن كتاب ابن بصال ذي الأهمية الكبرى. وجاء المؤلف الاشبيلي الشهير أبو زكرياء بن العوام في القرن الثالث عشر فاستعمل أجزاء هامة من ذلك الكتاب في تأليف كتابه الفلاحي الهام. الا أن «بانكري» الحر الكنسي وتلميذ القاسري قد حرف اسم ابن بصال إلى ابن الفاضل عند ترجمة الكتاب. غير انه قد تم العثور خلال السنوات الأخيرة على النص العربي في شمال افريقيا. ويشتمل ذلك النص على ستة عشر فصلاً (16) واخيراً قد عثرت على مخطوط آخر لكتاب ابن بصال هذا وهو في نصه المبهم ممتور في الاسطر الأولى للمخطوط العربي الموجود بمكتبة باريس الوطنية رقم 5013 في 72 ورقة بالواجهة الأولى في الأخير. والمؤلف الذي يكتب بالضمير المفرد رجل ذو تجربة يقتفي المنهج السابق الذي هو منهج منظم محكم. وسامح لنفسه بأن أعرض عليكم على سبيل المثال كيفية تحدث المؤلف عن الأرض.

(15) انظر مقالتي «La traducción castellana del «Tratado de Agricultura» de Ibn Baṣṣāl» في مجلة Al-Andalus، عدد XIII، سنة 1948، صفحة 347 إلى 430.
(16) انظر مقالتي «Los cinco últimos capítulos de la obra agronómica de Ibn Baṣṣāl» في مجلة Tamuda، العدد الأول، سنة 1953، صفحة 47 وما بعدها.

هذا الزبل نبتاً بل مدبراً وان كان من ثلاثة اعوام فهو احسن ووافق لهذه الارض في فصل الحر، واما في الشتاء فان طرح فيها من الزبل ما له عام او اكثر فهو موافق لها لان حرارتها متيكة فيه.

فصل: واما الارض الغليظة فهي تماثل الارض اللينة بعض المناسبة وتقرب منها وجود فيها اكثر الثمار، والغالب على مزاجها الحرارة والرطوبة يدل على ذلك انه اذا زرع فيها النبات بكبراً او دخل عليه فصل البرد لم يسأل عنه ويتخلص، وربما احتاج الى اليسير من الزبل وهي ارض مدخنة قوية يخرج ودكها على وجهها وتمكث في هذه الارض حرارة قوية تولدت فيها من اجل ان هذه الارض تنفتح وتنشق عند افراط الحر فيسرى فيها حر الهواء فاذا نزل عليها الماء انقبضت وانغلقت على تلك الحرارة وتولدت فيها حينئذ رطوبة، ويخرج ودكها على وجهها ولا يحتاج ايضاً لهذه الارض الا الزبل اليسير لفضلها وحرارتها وينبغي ان يكون زبلها سلساً خدوماً معقناً رقيقاً قديماً ليكون واسطة بين الارض والنبات وهذه الارض محتلة لكثير الماء لحرارتها، وهي تتعلك عند نزول المطر عليها، ولا يغوص الماء فيها سريعاً بل يبقى على وجهها من اجل شحمها، وبذلك يستدل على انها مشحمة وفيها بعض ما في هذه الارض اللينة من انفتاح مسامها وتعاقب الاهوية على باطنها وهذا يكون منها في فصل الحر عند تشققها كما ذكرنا فيغوص فيها الهواء الحار فيطبخها وينضجها ويذهب ببرودتها فتصالح لذلك وتتجرد كل عام بهذا الامر الذي يعرض لها.

فصل: واما الارض الجبلية الغالب على طبعها البرودة واليبوسة فهي (18) تناسب الارض اللينة في البرودة خاصة، وليس لهذه الارض مسام

(18) بالاصل: «وهي»

الباب الثاني في ذكر الارضين

اعلم ان الارض التي للغراسه والزراعة تنقسم على عشرة انواع يوصف كل نوع منها بصفة وهي اللينة والغليظة والجبلية والرملية والسوداء المدمنة المحترقة الوجه والارض البيضاء والارض الصفراء والارض الحمرة والارض الحرساء المضرسه والارض المكدنة المائلة الى الجراء ولكل نوع من هذه الارضين نبات يوجد فيه وعمل وتدبير ونحن نفرد الكلام على كل نوع منها ان شاء الله.

فصل: في الارض اللينة (17) فالغالب على طبعها البرودة والرطوبة وطبعها اعدل طبائع الارضين الموصوفة قبل هذا وجود فيها جميع الثمار والنبات لاعتدال الرطوبة والبرودة فيها قابلة لكل ماء موافقة لكل هواء مسامها مفتوحة فالماء يدخلها والهواء يتخللها ويصل اصول الثمار المغروسة فيها، ويتعاقب الهواء على اصولها بالحر والبرد فتصلح بذلك صلاحاً شديداً، ولاعتدال هذه الارض في مزاجها استغنت عن الزبل الكثير فهي لا تحتاج اليه الا عند فصل الشتاء من اجل ذلك فيجدها الربل عند ذلك ويدفع عنها افراط الهواء، وينبغي ان يكون هذا الزبل الذي يطرح فيها ذا حرارة ورطوبة واما في فصل الحر فلا تحتاج هذه الارض من الزبل الا يسيراً، ويكون من الزبل الادمي وشبهه ولا يكون

(17) بالاصل «اللينة»

مقنوعة مثل ما للارض اللينة والغليظة وهي مائلة الى الحروشة من اجل اليبس المكون فيها، ولا يجود في هذه الارض كل نبات ولا يصلح فيها كل ثمر. فمن بعض ما يجود فيها من الثمار اللوز والتين والفسق والبلوط والقسطل والصنوبر وما اشبهه، وسنذكر ذلك مشروحا ان شاء الله، ويوافق هذه الارض الماء الكثير والزبل الكثير وهي ارض شديدة قوية في ذاتها تتداول الاهوية على ثمرها المغروسة فيها ولا يؤثر فيها الا ان يكون في بعض الاعوام صر مفرط خارج عن العادة فربما اضر بها بعض الضرر لان الثمار التي في هذه الارض مشاكلة لها في طبعها وشدها وهي محتاجة كما ذكرنا الى كثرة الماء والزبل الذي يصلح لها ما قربت حرارته وتمكنت رطوبته لاجل برودتها ويبوستها، ولا ينبغي ان يغفل عن هذه الارض وشبهها بالزبل بل يتعاهد به لانها تاكل الزبل وتحيله في اقرب مدة وترده الى طبعها وما زرع فيها من النبات بكثيراً (19) لابد له من الزبل على كل حال، كان الشتاء رطباً او بارداً لا بد لهذا النبات من الزبل اول ما يزرع الا انه ان كان فصل الشتاء رطباً ربما كفاه ما جعل فيه من الزبل اول ما زرع ويتخلص به ذلك العام ولجل احتياجها الى الماء الكثير الذي يعين عليها ويذهب برطوبتها، فانه ان غفل عنها ثم زرع فيها الزرايع المختلفة ونبتت وارادت النهوض لم تقدر، وربما تحركت قليلاً، لاجل ما فيها من يسير الزبل ونهضت حتى اذا فنيت المادة البسيرة من الرطوبة والحرارة وهي قد بلغت ثلث مدتها او نصفها او قاربت تمامها توقفت (20) وتقهقرت. فصل: واما الارض الرملية فالغالب على طبعها الحرارة مع برودة

(19) باصل : «بكير»

(20) بالاصل : «توقعت»

يدل على ذلك ان ما زرع فيها من النبات بكثيراً دون ان يكون فيها زبل تحير (21) ولم يعمل شيئاً كان الهواء رطباً او يابساً وربما نهض قليلاً ان كان الهواء رطباً ثم يتوقف لان بردها يتقوى ببرد الهواء، ويضعف الحر الذي فيها، فاذا كان فصل الخريف تقوت حرارتها بحرارة الهواء وتضعف تلك البرودة التي فيها، فلا بد لها من الزبل ويكون زبلاً خدوماً متمكناً من الحرارة والرطوبة. واحسن ما تكون هذه الارض في الاعتدالين لانها تميل عند فصول السنة ببيلانها وفيها رطوبة، وكل ذلك لم يتمكن فيها كل التمكّن ويجود في هذه الارض من الثمار شجر التين والرمّان والتوت والصنوبر والسفرجل والخوخ والبرقوق والورد، وقد يجود فيها ايضاً افضل مما (22) ذكرنا الا انها مخصوصة بموافقة ما ذكرنا من الثمار لانها مشاكلة لها في طبعها، وسنذكر ذلك مشروحا ان شاء الله واكثر الخضر تجود في هذه الارض اذا اكثر عليها الزبل حتى يغلب على جوهرها ويستولى على ذاتها، واما الماء فلا تحتمله كغيرها من (23) الارضين لان الماء القليل يجري عليها ويسري الى اعماقها بسرعة ويجود فيها المقاتي والكتان وما جرى مجراهما من النبات. وهي ارض مامونة لا يخشى عليها الاحتراق وان اكثر عليها بالزبل وهي قريبة المرام في الخدمة، مامونة في الآفات والجوايح لا تعدو على نبات بتلك سريعاً كما يفعل ساير الارضين فان بعضها يصيره حريقاً من يومه. وينبغي ان لا يكثر عليها بالماء لان الماء يغيب داخلها وربما ظن بها انها لم ترو وهي قد اخذت فوق حقاها لان غيرها من

(21) بالاصل : غموض : تحير ؟ تجير ؟

(22) بالاصل : «ما»

(23) بالاصل : «على»

الأرضين يجري عليها من الماء الشيء اليسير، ويبقى على وجهها ويظن بها انها قد رويت وهي لم تيبس (24) داخلها من الماء الا اليسير وينبغي ان تراعي في سقيها وتعطش، وحينئذ تسقى ولا تمكن من الماء كتمكين غيرها.

فصل : واما الارض المدمنة السوداء المتحرقة الوجه فبالغالب على طبعها الحرارة واليبوسة مع الملوحة، يدل على ذلك ان النبات اذا ركزت فيها مثل الكتان والفول وما اشبهه ودخل عليه فصل الشتاء والبرد المفرط لم يضره ذلك بل ينفعه. وان كان فصل الشتاء بطيئا عفن النبات فيها وضعف. وهي قليلة التأثري في المعالجة لافراط الحرارة التي فيها مع الملوحة، وذلك ان مزاجها استحال لكثرة تقادمه فيها فتغيرت لذلك واحترقت وذهبت رطوبتها وتولدت فيها ملوحة. وهذه الملوحة هي التي تفسد النبات وتحصده في اصله. وربما كان للنبات في هذه الارض اقبال اول مرة وما دام الهواء معتدلا عليه فاذا تغير الهواء برطوبة مع شيء من برودة وحرارة انفسد لانه ان تبادت عليه الرطوبة انفسد وعفن، وان دخلت عليه حرارة مع يبوسة يبس سريعا. واحسن ما يكون نبات هذه الارض عند افراط البرد لان البرد يكسر من حرارتها وملوحتها فتعتدل عند ذلك، وان كان النبات الذي فيها قد جاز قطافه كان حسنا لذيد العظم. والذي يوجد في هذه الارض غاية الجودة من النبات الفول والحرف والخردل والكزبر وما اشبهه ذلك، ويوجد فيها جميع الحضر في فصل البرد كما ذكرنا ويوافق هذه الارض من الثمار ما كان مائلا الى الحرارة والرطوبة او الى البرودة واليبوسة او كان فيه لين مثل

(24) لعلها : «يسر»

التوت وشجر الزيتون والزفيزف وشجر التين ويجود فيها الرمان اذا كانت رملة ويأتي فيها متناهما في الطيبة. واذا هجم الحر على الارض فينبغي ان يتدارك بالماء الكثير والا هلك ما فيها من النبات مسرعا ولا يكون نباتها طيبا في فصل الحر كطيبيه في فصل البرد المفرط، ولا يعثرى هذا الفساد الذي ذكرنا في كل ارض مدمنة كثيرة الزبل، بل من الارضين ما يكثر زبلها وينفعها ذلك مثل الارض الرملية الباردة والجبلية اليابسة والحرسا المضرة ونحوها. فان كانت مدمنة جدا لم يضرها بل ينفعها ويعتدل مزاجها. وانما يعرض ما ذكرنا من الفساد والاستحالة للارض اللينة الطيبة والغليظة المودكة التي تصلح بالزبل القليل. وليس كل ارض يطلق عليها انها جيدة ولادية حتى يعلم ظاهرها وباطنها لانه ربما كان وجه الارض جيدا واسفلها بخلاف ذلك او يكون وجهها رديا واسفلها بخلاف ذلك. وهذا كله يعرف بالاختبار والامتحان ودوام الحركة بالعمل فيها.

فصل : واما الارض البيضاء فالغالب على طبعها البرد واليبس، وبردها اكثر من ييسها، ويوجد في الغالب من حالها بقية من العشب لاجل البرد واليبس الغالبين عليها لان العشب لا يكون الا في الارض الكريمة ولا يطول الا من سبب المواد التي تكون في الارض، فعلى قدر المادة يكون عظم الحشيش وكثرته. ويصلح في هذه الارض ما كان من شجر التين والزيتون واللوز والكرموس وما جانشها. فاما شجر التين فينفع فيها، وتتمكن عروقه ويسرى فيها ولا يخاف على شجرها احتراق لقوة البرودة المتمكنة فيها ويأتي ثمرها طيبا لذيدا في طعمه، ووقته لا يتجاوز، ويحتاج النبات الذي يزرع في هذه الارض الى الزبل الكثير ويكون قويا

في الحرارة والرطوبة ولا تحتل هذه الأرض الماء الكثير لبرودتها وهي محتاجة الى كثرة الخدمة.

فصل: واما الأرض الصفراء فقريبة من الأرض البيضاء في الطبع والجوهرية، الا ان هذه الأرض اقل فائدة، ولا يصلح فيها من الثمار الا ما كان له اصل يخرقها وينفذها (25) وهي تحتاج الى المعانة بالزبل الكثير لان الزبل لا يمازجها سريعا كما يفعل بسائر الارضين، ولا يكاد الزبل يمازجها ويتفق معها الا عند تمام العام او قريبا من تمامه، وهي محتاجة الى المواظبة بالخدمة وتكرار الزمل عليها المدة بعد المدة حتى تميل الى الزبل وتقبله وتوافقه ويعفن الزبل فيها ويرجع ارضا جديدة، وما جعل بعد ذلك من الزبل فيها قبلته قبولاً حسناً وتركب فيها حرارة ورطوبة وتصلح لجميع النبات وتلحق بغيرها من الارضين وبالجملية فانها ارض ضعيفة معتلة متغيرة لا تصلح الا بكثرة المعانة والتزليل والخدمة ومتى عدت ذلك لم يكن فيها منفعة البتة.

فصل: واما الأرض الحمراء فالغالب على طبعها الحرارة واليبوسة وحرارتها اكثر من يبوستها فمن اجل ذلك صار فيها رطوبة متمكنة قوية. وهذه (26) الأرض غلظ في بشرتها وقوية في ذاتها فهي لذلك محتاجة الى اكثر الخدمة والعفن (27) عليها. فينبغي ان تقلب وتحرق (28) ويجول اعلاها اسفلها واسفلها اعلاها، فبهذا العمل يدق ترابها وتلين شدتها. فاذا فعل ذلك بها احتملت في اول مرة ان يزرع فيها كل ما يحتاج اليه دون

(25) هكذا بالاصل، ولعله: «ينفذ فيها»

(26) كذا بالاصل، ولعله: «ولهذه»

(27) كذا بالاصل، ولعله: «والعفن»

(28) تحرقه؟ تحرقه؟ تحرك؟ تحرقه؟

زبل. وهي محتملة للماء الكثير وهي قليلة الوجل والعشب الاحرش كالخرشف وما جرى مجراه واذا حركت هذه الأرض تحركت واذا تحركت لم يكن فيها عشب يذهب برطوبتها، لانها ضئيلة بما عندها لا يوجد فيها مازرع فيها الا بعد الخدمة والاجتهاد، وحينئذ ينجب كل ما زرع فيها ولا يقوم معه عشب يشاركه في الغذاء ويكون النبات الذي يزرع فيها ثابنا رزينا، (29) قويا، ولا تحتاج هذه الأرض الى الزبل الكثير وما تحتاج منه الى اليبس حتى يكاد لا يظهر فيها الا ان تغمر زمانا لا يفتر عن الزراعة ودوام الماء عليها، فيطرح لها من الزبل حينئذ ما تحتاج اليه وهذه الأرض تقبل الماء قبولاً جيداً وتشربه شرباً معتدلاً شيئاً بعد شيء لا تبلعه جملة واحدة كما تفعل سائر الارضين، ولا يسرى من الماء فيها الا ما رقى منه ويتقى قفله (30) على وجهها وتملك الثرى ويدوم فيها ويوافقها من الثمار ما كان ملائماً الى الحرارة واليبوسة مثل التفاح والاجاس وعيون البقر والتوت واللوز، ويوجد فيها الورد ويأتي حسناً وسيأتي وصف ذلك في موضعه ان شاء الله.

فصل: واما الأرض الحرسا المضرة المحبة فالغالب على طبعها البرودة واليبوسة وفيها رطوبة وهي ملائمة عند المناولة تمازج الزبل وتقبل الماء ويوجد فيها الثمار مثل الفستق والجوز واللوز. وشجر التين يوجد فيها الا انها تشبه الأرض الجبلية وتناسبها، ويوجد فيها ايضا السورد والاجاس ويصلح الكرم فيها جدا وكذلك القرع والباذنجان. ومن اراد استعجال القرع وهو في غير هذه الأرض نقل من تراب هذه الأرض

(29) بالاصل: «رزيا»

(30) لعله: «ويبقى جله»

الثالث في ذكر السرقين

اعلم ان السرقين المستعمل في صناعة الفلاحة ينقسم الى سبعة انواع: فزبل الخيل والبغال والحمير نوع واحد، ثم زبل الادمى ثم الزبل المضاف وهو المؤلف من الكناسات، وغيرها ثم زبل الغنم، ثم زبل الحمام، ثم رماد الحمامات، ثم المولد وهو زبل يتخذ عند عدم هذه الزيول من الحشيش والتراب. وسنذكره في موضعه. ومن السرقين ما لا يستعمل وهو للنبات كالسم مثل زبل طير الماء والخنازير، فالقليل من هذا الزبل يهلك الكثير من العشب، فينبغي ان يتحفظ منه كل التحفظ، ونحن نذكر كل نوع منها على حدة ان شاء الله.

فصل: فاما زبل الخيل والبغال والحمير فحار رطب وحرارته اكثر من رطوبته وهو زبل جيد محمود يستعمل كما هو اذا نقى من التبن او ما يخالطه من غيره، ولا يكون استعماله كما هو دون تغفن الا في فصل البرد خاصة، واذا مكث هذا الزبل عاما كثرت حرارته وتمكنت رطوبته واعتدلت مع الحرارة، فعند ذلك يصلح استعماله في كل شيء من النبات، وان ترك عامين كان احسن. وافضل ما بعد ثلاثة اعوام. عند ذلك يصلح لكل ارض ويجود به كل نبات. وهو بعد ثلاثة اعوام افضل الزيول لان طبعه طبع الحياة، الحرارة والرطوبة تحيا به الخضرة وتنعم ويوافق ما هو لها في الاعتدالين ويوافق هذا الزبل الارض الرملة لاجل بردها فيعدلها ويجسها.

الحرشا المضرسة الى الارض التي يريد زراعة القرع فيها، (32) يكثر بالعقد ويتصلب ويكبر كما وصفنا، وهذه الارض المضرسة على ضربين، فضرب منها يكون التحبيب الذي على وجهها لطيفا وهي التي اردنا في كتابنا هذا، واما الضرب الثاني فهي التي على وجهها تحبيب كثير ومتى (32) كشف عن باطنها بايسر حفر وجد حجرا متصلا بهذه غير متأية العمل، فلا حاجة بنا بذكرها (33).

فصل: واما الارض المكدنة المائلة الى الحمرة فالغالب على طبعها البرودة واليبوسة وهذه الارض احط من الارض المضرسة، وهذه الارض المكدنة تحتاج الى الخدمة القوية والعمارة الجيدة ويوافقها من الزبل ما كان معتدلا في التعفن لانها سريعة المازجة له، واذا عولجت بما ذكرناه من الزيول والعمارة تمكث فيها الحرارة والرطوبة فاعتدل مزاجها، واذا كان في هذه الارض الثمار دون النبات فانها لا تحتاج الى زبل والى ماء اذا عمرت بالحرث، ويعمل لها في داخل العام حولها قصار ثم يجمع التراب حولها وربما عرض لها عارض فاحتاجت الى الزيول الحار والمعتدل فتعالج به وسنذكر شرح هذا فيما بعد ان شاء الله.

(31) لعل «فاته» ساقطة هنا

(32) كذا بالاصل، ولعله: «ومن»

(33) لعله: «الى ذكرها»

الا انه اذا خلط مع غيره من الازبال صلح وتكونت فيه رطوبة ولا يستعمل وحده الا في تحلية الارض خاصة الا ان يطول مكثه ويألف الهواء ويفارقه تأثير النار ومع هذا لا يقوى قوة غيره من الازبال.

فصل : واما الزبل الادعى فطبعه الرطوبة واللزوجة (34) ولا حرارة فيه وهو زبل ممات ملائم يوافق النبات ويصلحه في زمن الحر لانه رطب لا حرارة فيه ولا يبوسة، فينبغي ان يعرف قدره وعظيم فائدته وان يعد للاعراض التي تدخل على ورقات الصيف مثل القرع والبادنجال والبصل والقنبيط وغيرها من الخضر. وذلك انها اذا احترقت اخذ من هذا الزبل وطرح على رأس الجرد من الجانب الذي ينصب فيه الماء ويرش ذلك بالماء حتى يرجع في هيئة الطين ويحلل في جردى ويسقى ذلك النبات المحترق به فيجما عن قريب ويصلح.

فصل : واما الزبل المضاف فهو (35) ذو حرارة ورطوبة ولزوجة وملوحة ولاجل هذه القوى المختمة فيه صار من افضل الزيول واشدها موافقة للارض والماء لاجل اللزوجة التي فيه، ولا سبيل الى استعمال شيء منه الا بعد عام وما يجاوزه الى ثلاثة اعوام كان افضل، ومتى استعمل قبل العام تولد منه حيوان يضر بالنبات ولا يوافق (36) الارض ويلتئم معها، لان كثير البقل يحتاج الى تنقية حسنة وتقطع دائم شيئا بعد شيء، وما ترك كان احسن له لان اجزائه مختلفة الاجناس، فلا تأناسف الا بعد مدة مكث طويلة تنضج اخلاطه فيها وتعديل، ولا ينبغي ان يستعمل بعد

(34) في الاصل: «الزوجة»

(35) بالاصل: «وهو»

(36) في الاصل: «ولا يوافق»

عام واحد الا عند الضرورة اليه، وهو زبل قوى مبارك ذاك (37) يقوم القليم منه مقام الكثير من غيره اذا استعمل بعد تعفنه وتطيبه كما ذكرنا فصل : واما زبل الضأن فحار رطب وهو دون ما ذكرنا من الزيول قبل هذا لانه يكثر فيه العشب اذا استعمل قبل التعفن من اجل ان الضأن تأكل الحشيش وتستكثر منه، فلا ينضج في بطونها فتبقى زريعته لم تتغير فتلقيه في بعلها (38) كما اكلته فاذا استعمل قام مع النبات وغلب عليه فان هو ترك قليلا حتى يعفن ويطيب وتموت تلك الزريعة التي فيها كان حسنا، واحسن ما هو اذا خلط من غيره (39) من الزيول قليلا فبعد ذلك يصلح لكل ما يستعمل من الخضر وغيرها ولا ينبغي ان يعفن الا عند الضرورة اليه.

فصل : واما زبل الحمام فهو ذو حرارة مفرطة ورطوبة شديدة ولا يبوسة فيه بوجه، وهو غياث النبات الذي قد ضعف وتحير من حينه، وينبغي ان لا يستعمل منه عند الحاجة اليه الا اليسير، لانه بمنزلة النار اذا اغلب، ولا يستطاع بعد ذلك اصلاح ما افسد.

فصل : واما زبل الحمامات اعني الرماد (40) ذو يبوسة وملوحة ولا رطوبة فيه، وهذه القوى التي فيه لا توافق الخضر والنبات، ولا يستعمل وحده الا في تحلية الارض خاصة اذا كانت ارض احسنة (41) او حرشاء

(37) لعله زاك

(38) لعله بعرها.

(39) لعله «بغيره».

(40) لعل «فهو» ساقطة هنا.

(41) لعله: «خشنة»

فيطرح عليها الرماد ويفرق عليها فيصير سلسا عند ذلك، وبالجملة فانه زبل غير محمود، لانه رماد تركته النار فلا شيء من الرطوبة فيه، فهو كالحيوان الميت الذي فارق الروح ليس فيه من الطبائع التي كانت تقيمه شيء، فهو لا يتركب مع شيء من الطبائع ولا يضاف اليه بوجه فصل: واما الزبل المولد فهي ثلاثة اضرب وهي تستعمل اذا عدم الزبل في جهة من الجهات.

الضرب الاول يؤخذ من اصناف العشب والتبن يحفر وحفرة على قدر ما يحتاج منه وتملأ تلك الحفرة من العشب والتبن والرماد اي رماد امكن من الحمامات والافران وغيرهما ويصب على الجميع ماء بعد ان تملأ الحفرة كما ذكرنا وان كانت بموضع ينزل عليها ماء المطر فماء المطر يعفنه ثم يخدم الزبل خدمة جيدة ويقلب مرارا كثيرة ويواظب بالتحريك والتقطيع، فانه سريع النضج بذلك ويأتي معتدلا جيدا يقيم الارض ويحيى النبات ويتصرف في الوجوه كلها ويوافق في الازمنة الاربعة، وهو زبل نقي لا يخالطه حجر ولا جلود ولا عظام كما يخالط سائر الزبول، الا ان الزبل المضاف اقوى منه على كل حال.

الضرب الثاني هو ان يؤخذ حمل من زبل مضاف ويضاف اليه ثلاثة احمال من التراب وتخلطه معه وتحرك مرة بعد مرة فيترك عاما ويتعاهد بالتحريك والخدمة فانه يأتي منه زبل جيد بعد العام. وكذلك الزبول كلها لا ينبغي ان تستعمل الا بعد عام وكل زبل يستعمل قبل تمام العام فهو غير محمود لانه زبل نبيء يمرض الارض ويدخل الدواخيل ومن اراد استعجاله قبل تمام العام فلينضجه ويطيبه بزبل الحمام. وصفة ذلك ان يجمع الزبل من كل ناحية ويجلب من حيث امكن فاذا

اكملت المزبلة وانتجت الى حد المراد دخل اليها وسويت وعدلت ثم يحفر فيها حفرا مفرقة وتعمق قليلا ويطرح في كل حفرة من زبل الحمام ويرد الزبل على فم الحفرة ويترك يسيرا ثم يتعاهد الى شهر ونحوه فانه يؤخذ زبلا نضجا متناهيها في الجودة معتدلا كانه زبل ثلاثة اعوام، فهذا وجه استعجال الزبل لمن احتاجه وكيفية ما تريد استعجاله فبحسب ذلك تطرح من زبل الحمام وهو زبل قوي جيد ان شاء الله تعالى.

والضرب الثالث ان يؤخذ زبل الحمام ويطرح اليه عشرون حملا من تراب ويترك عاما فانه يأتي فيه زبل جيد قوي متمكن الحرارة والرطوبة وقد ذكرنا قبل هذا ان الزبل المضاف يضاف الى الحمل منه ثلاثة احمال من تراب وذكرنا هنا في زبل الحمام (42) يضاف الى الحمل منه عشرون حملا من تراب ذلك لحرارة الزبل اعني زبل الحمام وقوته، فينبغي لصاحب هذه الصناعة النظر في مثل هذا واشباهه لئلا يدخل عليه الغلط والتفريط والله الموفق للصواب.

(42) لعل «انه» ساقطة هنا

الباب الرابع في اختيار الارض واصلاحها

اعلم ان مما تعرف به طيب الارض وشرفها ان تنظر الى ما ينبت فيها من العشب وقلته وكثرتة وغضارته، وكيف هو في اقباله وادباره، فان كان عشبها من العشب الذي ينبت في بطون الاودية والمواقع الرطبة علمت ان تلك الارض فيها البركة وعلى ما تحمله من العشب وقلته وكثرتة تحمل من الزرع والنبات.

فصل: وينبغي ان تعدل الارض قبل الفراسة وتسوي ويؤخذ التراب من المكان المرتفع ويجعل في المنخفض حتى يستوي جري الماء عليها، ويستوفي كل موضع منها من الماء حقه ويكون تعديل الارض بان ترزها بميزان الماء وهو الذي يعرف بالمرجقل، واذا كانت الارض طيولة (43) واحتيج الى تعديلها فان ذلك ان عولج بالنقل بالزرع من موضع الى موضع صعب لكن لها وجه تعدل به بأيسر كلفة وهو ان يصنع لها الجاروف وهي التي يجذبها البقر وهي معروفة عند ائمة الفلاحة، فاذا عدل الارض اخذ في غرس الثمار بعد ان يخط لها في الارض خطوطا مستقيمة حتى لا تخرج منها ثمرة عن حد صاحبها لتقابلها الريح (44) من اي ناحية هبت، وتستوفي كل

(43) طويولة؟

(44) بالاصل: «الرحيل»

ثمرة من الريح والهواء حقها ويجعل بين ثمرة وثمرة اثنتي عشر ذراعا.

فصل: اعلم ان الارض في طبعها بالجملة يابسة لا اختلاف في ذلك، الا انه يتولد على وجهها العشب، فاذا غمرت ذهب الرطوبة منها وضعفت مادتها فتحتاج الى التقوية بالزبل لما فيه من الحرارة والرطوبة، الا ان هذا يمكن في القطعة اللطيفة من الارض او الحبة، واما الارض العريضة العظيمة فلا يستطاع ذلك فيها والذي يقوم لها مقام الزبل وهو (45) القلب (46) ومعنى القلب ان تحرث ويرد اعلاها اسفلها مرة بعد مرة ويشرع فيها من نصف شهر يناير وفبراير الى النصف من مارس او الى اوله ثم يرجع على حرث ما حرث ويحرث ويلينه ويعمله عملا جيدا الى نصف ابريل او الى قريب من مائه، ثم يحول عليها بالتثليث الى آخر مائه ويتركها للحر المفرط وهي قد امتزج بعضها ببعض ورقت بشرتها وذهبت فضولها، فان تنزل عليها الماء في شهر يونيو ورويت من الماء فلتحرث عند ذلك ويكون هذا حرثا رابعا ثم تترك ولا تعرض بعد هذا ولا تزداد على اربع سكك او اثنين ان كانت الارض طيبة، لان الشعير فيه رطوبة قوية فيلاثم الهواء والارض فتسرع بركته ثم يترك مفتوحا للحرث يجذب رطوبته ويعفن عشب ويطبخ مدة طول الحر فتتمكن فيه الحرارة والرطوبة فاذا كان في اول فصل الخريف ونزل عليه الماء وثرى وهذا العمل يعدل الزبل ويفوقه لان الارض تنفتح مسامها بالحرث ويسرى الهواء الحر اليابس في داخلها ويعم جميع اجزائها ثم ترطب بالماء، ومع ان حرارة الهواء الطيف من حرارة الزبل وافي،

(45) يظهر ان الواو زائد في الاصل

(46) بالاصل: القلب

وإذا كان ابتداء القليب في شهر يناير كما ذكرنا كان احسن لان (47) في ذلك الوقت يبدأ العشب بالنبات ولا أصل له في ذلك الوقت وعمدة العمل على هذا الحرث الاول اذا خرق خرقة جيداً اسهل على العامل الثاني والثالث والرابع، وقد يحتمل الكروم اكثر من اربع سلك لوجوه سنذكرها بعد هذا ان شاء الله تعالى، وينبغي ان لا تقلب الارض قبل يناير لانه ان فعل ذلك بها وتواترت الامطار عليها في يناير تسيلت الارض التي حرثت وترجع كما كانت واشد ويتمكن بها الماء فيذهب رطوبتها جملة واحدة لا سيما ان وافقها عند الفراغ من حرثها فالوجه ان يبدأ بحرثها من نصف يناير ومن اوله اذا كان قليل المطر الا ان يزرع في القليب الكرسة او الحمص او المقائي فيبتدئ (48) متى احب ان شاء الله اول دجنبر او في نصفه ويكون موضع الكرسة او الحمص او المقائي قليلا بعد ذلك.

فصل: اعلم ان الارض التي يزرع فيها ثلاثة اضرب بور ومعمور وقليب، فالبور ارذلها للزرع وان كانت في ذاتها طيبة ولا تصلح حتى تحرك بالقلب او بالتزيبيل لانها ارض راقدة هامة، واما المعمور فهو الحصيد وهي افضل من البور على كل حال لا سيما ان كان الحصيد من زرع قد كان على قليب، وقد كانت الارض بورا، والقلب الذي على سكة واحدة افضل من العبارة الطيبة واصدق في الزرع، واما الذي هو من سكتين فهو اجود وافضل والذي ثلاث (49) واربع هو المتناهي

(47) لعله: «لانه»

(48) في الاصل: «فيعتدي»

(49) لعل العبارة «والذي هو من ثلاث» الخ.

في الجود ولا شيء يعدله لا الزبل ولا غيره، وقد ذكرنا علة ذلك وهو بين لا يخفى الا عند الضعفاء من اهل الفلاحة، واذا نزل الماء على الارض اول اكتوبر وكان الماء على قدر ما تسري به كان ذلك حسنا جيدا (50) كانت الارض عند ذلك قائمة بنفسها مستحكمة في صحتها فان تكاثرت عليها الماء بعد ذلك ودام عجزت عن حملته وثقلت به ودخل عليها العوارض من اربع جهات وهي برد الماء وبرد الهواء وبردها وبعد الشمس عنها. ومما يستدل به على مرضها ان ينظر اليها في هذا الفصل وهي تحرث، فان رأيت ارضا لا تجرى وتنقطع مدرا صغيرا فهو بدء مرضها. فان تركت حتى تخف مما اثقلها من البرودة والرطوبة التي فيها كان حسنا. وان تقوي الحال بها وترادف الماء والهواء المتكاثف عليها وانقطع (51) الارض لها عند الحرث مدرا كبيرا او صفارا فهي مريضة لا محالة لا يصلح ان يزرع فيها في ذلك الوقت شيء غير الترمس لا اكثر. وتركها عند ذلك احسن من حركتها لحياطة الزريعة وصيانة الارض وان حركت في ذلك الوقت اضر بها ذلك من (52) العام القادم وزادها ذلك مرضا الى مرضها لانها متى حركت ثم خرج عليها الشمس في فصل الربيع والصيف اشتد ذلك وصارت على صفة خبث الحديد وانزمت على ما زرع فيها من النبات وقطعتة سريعا، ولا يكون فيها منفعة الا بالقلب واما اذا نظرت اليها عند الحرث على ما قدما فرأيت ارضا تنقطع مدرا عظيما من اول الخط الى

(50) لعل «أن» سقطت هنا.

(51) لعله «انقطعت».

(52) لعله «في».

آخره متصله بعضها ببعض لا صغار معها، فهذه الارض موات لا خير فيها ولا بركة وسميها عند ذلك مواتا، لان جميع ما يزرع فيها يموت، ولا تصلح لشيء من الزراعة ولا الغراسه، وكذلك وقت تقليب (53) ينبغي الا تخرث اذا كانت على هذه الحال حتى تخف.



وكتاب ابن بصال هو على هذا النحو من التركيز والوضع العملى الخالى من الاسراف في اثبات الشواهد. وقد كان لابن بصال تأثير كبير في العلم الفلاحي العربي الى درجة انه تخطى ابن وافد. وكان ابن بصال عالما فلاحيا حقا وكان له نفوذ كبير في التقليد العلمى الفلاحي. ويكثر المؤلفون الفلاحيون العرب المتأخرون من اثبات فقرات من كتاب ابن بصال.

ويوجد مخطوطان في المجمع التاريخي احدهما برقم 19 من مجموعة «كوديرا» يشتمل على بحثين غفلين في الفلاحة يذكر ابن بصال في اولهما بكثرة، اما البحث الثاني - وهو برقم 30 من مجموعة «غايانغوس» فيشتمل على كتاب قصير في التلقيح منسوب الى ابن فضال الذي ربما كان تحريفا لابن بصال. وقد كان تأثيره بحق تأثيرا كبيرا (54) وبهذين المؤلفين الاخيرين وهما ابن وافد وابن بصال نصل الى القرن الحادى عشر في طليطلة. وقد كانت بسائط نهر التاجه بمناخها

(53) لعله «تقليبها».

(54) وقد نشرت مع السيد محمد عزيمان، وترجمناه بالترجمة الاسبانية واشرنا الى ما كان لابن بصال من صدق.

الجميل تدعو الى التكثير من الفلاحة. وبعد هذا نصل الى مؤلفين من الجنوب من اشبيلية والوادي الكبير وبسائط غرناطة. وقد اشتهر باشبيلية حوالي 1073 مؤلف آخر وهو احمد بن محمد بن الحجاج الذى كتب كتاب «المقنع» الذي لم ينشر لسوء الحظ. ويكثر المؤلفون الآخرون الذين وقفنا على نتائجهم من ذكر هذا المؤلف. فذكره مستمر متواصل في كتاب ابن العوام المؤلف الاشبيلي الشهير في علم الفلاحة. وقد كان كذلك من علماء النحو، ويظهرنا على اطلاع كبير في كتاب له شبيه بكتاب «الفلاحة النبطية» والذي هو مجموعة من الشواهد. وهو يذكر بكثرة من المؤلفين الاقدمين «يونوس» الذي هو «خونيو موديراتو كولومبلا» من قادس. وهو يجد لذة في المقارنة بين قواعده والتجارب التي قام بها ذلك المؤلف في المقاطعة الاشبيلية من الاشرف الى قارمونة.

وهناك مؤلف فلاحى اشبيلي من الوادي الكبير كان رفيقا للمؤلف السابق او استفاد منه هو «ابو الخير» الذي يكسر ذكره فيما بعد وكتابه وان كان قيما فقد وصل اليها في مخطوطات مختلفة. الا انه من العجيب أن ينسب اليه في رسالة طبعت بفاس سنة 1357 هجرية كتاب آخر في الفلاحة ليس من نتاجه، بل قام الدليل على ان جزءا منه هو من عمل ابن وافد نفسه. (55) ولعل السبب في هذه النسبة يرجع الى سمعة كتاب ابي الخير في الفلاحة، مما جعل بعض المؤلفين المحدثين

(55) انظر E. García Gómez في مقاله «Sobre Agricultura arábigo - espa-ñola (Cuestiones bibliográficas)» في مجلة Al-Andalus العدد 10، السنة 1945، من صفحة 127 الى 146 ومقالي «Sobre bibliografía agronómica hispano - árabe» في مجلة Al-Andalus العدد 19، السنة 1954، من صفحة 127 الى 142.

قد وصلنا الى العصور التي تميزت ببعض الانحطاط، تلك العصور التي شاع فيها نظم كل شيء بما في ذلك العلوم الفلاحية. وقد قال مؤلف فرنسي هو الاستاذ ا. بريس ان ارجوزة ابن العيون هي بمثابة الجيورجيات الاندلسية. غير انه لا يحسن اثبات هذا القول لان الارجوزة خالية من الحمية والحماس مختلفة تمام الاختلاف عن الجيورجيات التي كتبها «فيرجليو». وتلك الارجوزة أهمية كبرى وهي أنها تساعدنا على جمع كتاب ابن البصال في الفلاحة.

ونصل في النهاية الى اواخر القرن الثاني عشر واول القرن الثالث عشر عند ما دخل فيرناند الثالث الى الوادي الكبير واحتل قرطبة واشبيلية وكان ذلك الاحتلال خاتمة ازدهار علم الفلاحة عند الاسبانين المستعربين.

وفي ذلك الحد الواقع بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ظهر مؤلف آخر جنوب اشبيلية هو ابو زكرياء يحيى بن محمد بن العوام الذي ألف كتاباً جامعاً في الفلاحة كان له حظ اكتشافه من طرف «القاسيري» في الاسكوريال فاسترعى انتباه الناس اليه بما فيهم رجال السياسة من أمثال «كامبومانيس» وقد قام احد تلامذته وهو خ: م. بانكيري بطبعه وترجمته الى الاسبانية. ونحن الآن في عصر الازدهار الفقهري في اسبانيا، بل في عهد شارل الثالث الذي حرص على رفع مكانة اسبانيا، التي وجدها منحطة واجتهد من اجل تقويم الثقافة وتنشيطها. وجاء الى اسبانيا رجل من لبنان هو «القاسيري» فوضع سجل المخطوطات العربية لمكتبة الاسكوريال التي وجدت بينها كتب قيمة كثيرة ولهذه المكتبة أهمية الكثرة والجودة فيما يخص كتبها العربية. وهكذا

ينسبون اليه كتباً لم يكن هو بحق مؤلفها. وابن العوام يكثر كذلك من ذكر مؤلفنا هذا.

ونجد كذلك في وادي غرناطة الخصب مزارعاً آخر خلف لنا نتاجاً قيمياً. وقد كان فقيهاً، وعما قريب سيطبع كتابه. وكان يسمى ابا عبد الله محمد بن مالك التجناري نسبة الى تجنار، الضيعة القريبة من «البولوطي» وقد كان التجناري قد ذهب حاجاً الى مكة، وهو لذلك يدعى احياناً بالحاج. وقد ألف كتابه في الفلاحة في اثني عشر قسماً وثلاثمائة وستين فصلاً واهداه الى امير مرابطي هو الامير ابو طاهر تميم المتوفى سنة 1125) وهو ابن يوسف بن تاشفين الشهير، اول او ملوك المرابطين وقد كان ذلك الامير حاكماً لمدينة غرناطة. والى هذا الحاكم اهدى مؤلفنا كتابه في الفلاحة، وهو كتاب ذو قيمة كبرى، وعلينا أن ننتظر صدور طبعته (56) وهو يقول لنا في هذا الكتاب انه كان يدرس باشبيلية حوالي عام 1101. ثم يحدثنا عن تجاربه وتلقيحاته وكيف اخترع «السرقسطيون» غربالاً فريداً. كما يحدثنا عن التجارب التي اجراها بنفسه وعن علاقته مع ابن بسال. وهو يذكر الفلاحيين الهنود والفلاحة الهندية ويقول انه زرع التين في شهر نوفمبر بل وحتى في شهر ديسمبر. وقد استطعنا تسجيل عدة مؤلفات في الفلاحة تقع خمس منها داخل قرنين.

اما كتاب ابن بصال الذي ترك تأثيراً كبيراً فقد استغله مؤلف من مدينة المرية هو ابن العيون الذي لخصه واخرجه منظوماً. وهانحن.

(56) انظر مقال «Un manuscrito de la obra agronómica de Al-Tignarí» في مجلة Tamuda العدد الاول، السنة 1963، صفحات 85 - 86.

نرى ان المؤلفين الفلاحيين من الاسبانين المستعربين قد اضافوا ما نقلوه عن الثقافة اللاتينية الى تراث الشرقيين الادنى والوسط الذي كان تراثاً قيمياً. وهم يكثرون من اثبات أقوال المؤلفين الفارسيين والعرب واليونانيين مثل «ديموقريت» و«أرسطوطليس» و«يونوس» و«فارون». ولعل هذا يرجع كذلك الى التأثير الذي كان للمسيحيين المستعربين في اشبيلية.

ومن الغالب انه قد تمت في القرن الثالث عشر تحت تأثير رعاية الفونسو العاشر الملقب بالعالم والذي ترجم كتباً علمية وفنية وفقهية ككتاب الفلكي «أزاريقييل» وكتاب الاسكلة ان ترجمت كتب ابن وافد وابن بصال في الفلاحة الى اللغة القشتالية. وقد وصلت اليها تلك المؤلفات في ترجمات قشتالية موزعة غفلاً.

ونحن في النهاية نرى ان هذا العلم الفلاحي للاسبانين المستعربين قد اثر في الفلاحة ابان عصر النهضة. وقد كانت لي منذ بضعة اعوام فرصة مراجعة كتاب «الفلاحة العامة» لالونسو دي ايريرا الذي ألف كتاباً تحت عاية الكاردينال ثيسنيروس، ذلك الراهب والسياسي الاكبر الذي حجب اليه العمل في تاليف كتاب عن الفلاحة. وقد عمد ايريرا الى السفر والاختلاف الى جنات الناحية الشرقية حيث يوجد التقليد الفلاحي متركزاً. ونحن نلاحظ ان الونسو دي ايريرا يكثر من ذكر «ابن زنييف» في كتابه عن الفلاحة، ولما رايت عدم تمكن المؤلفين من معرفة صاحب هذا الاسم فكرت في امكانية تحريف اسم ابن وافد الى ابن وفيز في القشتالية الناشئة، وفي امكان خلط احد الناسخين بين الواو والنون عند نقل ذلك الاسم. لذلك فاسم «ابن زنييف» في نص

صدر سجل القاسيري ونشر بأمر ملكي من طرف شارل الثالث وعند ما اكتشف القاسيري مخطوط ابن العوام شغف به حباً وكان يفكر في ترجمته فانجزها واجتهد في تعريفه. قنساً جو علمي لصالح كتاب ابن العوام في الفلاحة، ذلك الكتاب الذي سلك صاحبه نفس المنهج الذي درج عليه من تقدمه من المؤلفين، غير انه اكثر من اثبات الشواهد والاقتوال. وكان العلماء يفكرون في الاستفادة من معلوماته حتى في فرنسا وشمال اوربا. وقد جاء الى اسبانيا رجل دانماركي هو الدكتور «مولدنهاور» الذي اهتم كثيراً بمخطوط ابن العوام في الفلاحة الذي كان موجوداً حينذاك في الاسكوريال.

وجاء تلميذ للقاسيري هو قس بطرطوشة يسمى خ. ا. بانكييري فترجم ذلك الكتاب وأنجز ما لم يستطع استاذُه انجازه عندما ادركه الهرم. وقد ساعده على ذلك العمل وأرشده فيه راهب آخر من المارونيين وهكذا امكن تقديم كتاب الفلاحة لابن العوام الى الجمهور في تلك الطبعة الملوكية. ويقع ذلك الكتاب في مجلدين يقع النص العربي بخط جميل على عمود بينما ترد الترجمة الاسبانية على العمود الاخر. والكتاب مجهود ضخم بالنسبة لذلك العهد. وقام «مسيو كليمانت ميله» فيما بعد بترجمة حديثة تفوق سابقتها اتقاناً. وما زال في الامكان انجاز ترجمة نهائية. والكتاب كبير وان كان في المستطاع اخراجه بكيفية اكثر تركيزاً واختصاراً.

والمؤلف العربي الوحيد الذي يذكر هذا الكتاب هو ابن خلدون فيقول عنه انه استفاد كثيراً من كتاب الفلاحة النبطية. وهذا قول حق لان كتابنا هذا ربما بالغ صاحبه في ايراد الشواهد واقوال المؤلفين. ومن بين هؤلاء يذكر «يونوس» (موديرانو كولومبلا) و «فرون». وهكذا

الونسو دي ايريرا هو ابن واقد المذكور من قبل. وليس هذا القول مجرد اقتراض، لان النص الذى ينسبه الونسو دي ايريرا لابن زنيف مطابق للنص القشتالى لابن واقد ذلك النص الذى وجدته في طليطلة. وفي بعض الاحيان يغلط ناشرو كتاب الفونسو دي ايريرا فيكون تصحيح التصحيح في النص القشتالي لابن واقد. وأذكر في استشهد لابن زنيف حول كيفية مكافحة حشرات النبات او قملها أنه قال باستعمال «شيء قبيح الرائحة». وورد في عنوان المجلد الرابع عشر «شيء» وفي فقرات اخرى «Asafétida» وفي فقرات اخرى وضع ناشرو ايريرا لفظ الحنظل بالاسبانية بدل لفظ الجلد. وفي هذا الباب نجد ان النص القشتالى للعصور الوسطى قيم للغاية لتصحيح نص كتاب الفلاحة العامة لالونسو دي ايريرا.

وما من شك في ان الشواهد المنسوبة الى ابن زنيف قد انتقلت من
من خلال الونسو دي ايريرا الى التقويمات في استعمال المزارعين، تلك
التقويمات والاصطلاحات التي لا زالت تتردد بين الاوساط الشعبية
بالمادية الاسبانية.

